يحى بن حكم الغزال
الدّبلوماسي المحنّك و الشّاعر المفلق

yahia bin hakam al-ghazal ;le diplomate vétéran et le poète créative
yahia bin hakam al-ghazal ;the vétéran diplomat and the créated poèt

د. بلقاسم رفرافي

جامعة محمد خيضر. بسكرة .

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019-01-21	2019-1-28	2019-02-28

الملخص:

يتناول هذا المقال الشّاعر يحي بن حكم الغزال الذي يعدّ من أهمّ شعراء عصر الإمارة الأمويّة في الأندلس. ويحاول إماطة اللثام عن بعض جوانب شخصيّته الإنسانيّة والدبلوماسيّة غير المعروفة، كما أهمّ نماذج أشعاره وخصائصها الفنيّة.

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التّحليلي الملائم لمثل هذه المواقف وفق خطّة بدأت بمقدّمة، ومتن ضمّ سيرة موجزة عن الشّاعر، وأهم موضوعاته الشّعريّة وخصائصها الفنيّة، وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: يحي الغزال؛ الأندلس؛ الشعر.

Résumé

Cet article traite la vie du poète Yahya Gazal qui est consideré l un des poètes les plus importants de l époque de l émirat omeyyade en Andalousie . En essayant de détecter certains aspects de sa personnalité humanitaire et diplomatique non connus . Comme il souligne ses modéles de poèmes et les caractéristiques les plus imprtantes.

Cette recherche a appropriée d approche Descriptive et Analystique de ses positions qui ont été adopté.

les mots clés :

yahya gazal ; Andalousie ; poèsie;

مقدّمة

يعدّ يحي بن حكم الغزال من أوائل الدبلوماسيين وأشهر السّفراء العرب المسلمين في حياة الدول الإسلامية عامّة والأندلس خصوصا. كما كانت له مكانة هامّة بين العلماء في تلك الفترة إذ نال

شهرة واسعة في علم الفلك وغيره من العلوم. كلّ ذلك لم يمنعه من أن يكون مبدعا في ميدان الشِّعر المتنوّع الأغراض والأساليب.

وكان ثالث الثلاثة من شعراء الذين اشتهروا في فنّ الفكاهة السّاخرة في عصره إضافة إلى مؤمن بن سعيد والقلفاط

فقد ترجم له كثير من المؤلّفين كالحميدي في كتابه "جذوة المقتبس"، وابن دحية في مؤلفه "المطرب" وأحمد بن محمّد المقّري في مصنفه "نفح الطيب" وغيرهم. وكلّهم أبانوا عن مكانته الاجتماعية والدبلوماسية والأدبية. كما اعترفوا بشخصيّته الفذّة ودوره في النّهوض بالثقافة العربيّة إبّان عصر الإمارة بالأندلس.

حاولنا في هذا الموضوع أنّ نتقرّب أكثر من سيرة الرّجل، وأن نتعمّق في ماهية أشعاره لنترصّد في الأخير أهمّ مميزاتها وسماتها.

أوّلا: سيرة الشّاعر

1. حياته: هو أبو زكريا يحيى بن الحكم البكري الجيّاني (156هـ - 250 هـ)، نسبة إلى بكر بن وائل، وأصله من مدينة "جيّان" في مَوْسَطة الأندلس، الشهير بلقب يحيى الغَزَال. شاعر أندلسيّ عاصر خمس أمراء للدولة الأموية في الأندلس. لقّب بالغزال لجماله وظرفه وتأنّقه. وكان شاعرًا جزلا مطبوعًا، وبرع بالأخصّ في الغزل والحكمة، كما اشتهر بشِعره السّاخر اللاذع، وتنوّع مصادر ثقافته.

كان بداية ظهوره وبزوغ نجمه في بلاط الحكم بن هشام، وقد ظهر في ذلك الزّمان كثيرٌ من الفلاسفة والشّعراء والعلماء. كما كان يحيى الغزال زيادة على علمه وشِعره دبلوماسيّا وسياسيًّا بارعًا محنكًا، يُجيد خطاب الملوك ومجالستهم. واشتهرت صداقته الوطيدة بالأمير عبد الرّحمن الأوسط، كما اشتهر الغزال بالحكمة، وحصافة الرأي، وحسن التّدبير، والواقعيّة في التّعامل وصفه ابن حيان: «كان الغزال حكيم الأندلس، وشاعرها، وعرّافها».[1]

أدرك يحيى بن حكم في حياته إمارة خمسة من حكّام الأندلس الأمويّين: عبد الرّحمن بن معاوية الملقّب بالدّاخل (ت. 172) وهشام بن عبد الرّحمن (ت. 180) والحكَم بن هشام (ت. 206) وعبد الرّحمن الأَوسط ابن الحكَم (ت. 238) ومحمّد بن عبد الرّحمن (ت. 273)، وفي هذا قال الغزال(الرجز) [2]:

أدركتِ بالمِصْرِ ملوكاً أَرْبَعِهْ وخامساً هذا الّذي نَحنُ مَعَهْ

2. أعماله الدبلوماسيّة: في عام 225 هـ، كلّفه الأمير عبد الرّحمن الأوسط بسفارة إلى بلاط الإمبراطور البيزنطي (ثيوفيلوس Theophilos) ردًا على سفارة كان الإمبراطور أرسلها لطلب ودّ عبد

الرحمن. كما أرسله عبد الرّحمن في سفارة أخرى إلى بلاط (هوريك الأوّل Horik 1er) ملك النّورمان الدانماركيين في رحلة عاد منها بعد عشرين شهرًا عام 232 هـ ساهم بها في استقرار الأندلس.(3)

3. إبداعاته الشِّعريّة:

أ) الدّيوان: ديوان الغَزال عبارة عن قصائد ومقطّعات مجموعة، جَمَعَه "حبيب بن أحمد الشّطجيري" الأَندلسي. جمع "صالح بنداق" الباقي من شعر الغزال أوّل مرّة وضمّ فيه بضعاً وثلاثين قصيدة وقطعة. ثم جمع شعره محمد رضون الدّاية فوصل إلى نحو خمس وستّين قصيدة وقطعة رُتبت على حروف المعجم، وصُنع لها شرح ومقدّمات. وظهرت نصوص جديدة للغزال تضاف إلى مجموع شِعره، في السّفر الثاني من كتاب (المقتبس) لابن حَيّان.

ب) الأرجوزة: بالإضافة إلى الدّيوان، للشّاعر أرجوزة تاريخية عُرفت من خلال الوصف الذي كتبه عنها ابن حيّان في رواية المقّري فقال «ويُنسب إلى الشّاعر يحيى بن الحكم الشّهير بالغازي أرجوزة مطوّلة ورائعة عن فتح الأندلس، وضمنها أشعارًا تحكي سبب غزو الأندلس، وذكر بالتفاصيل المعارك التي حدثت خلال الفتح، كما ذكر عددًا من الأمراء الذين تولّوا حكم الأندلس، وقد أجاد الغزال في وصفه هذا حيث ذاعت شهرة هذه الأرجوزة بين النّاس»(4).أبو نواس وأبو تمّام من الشّعراء الكبار القدماء، الذين تأثر بهم يحيى الغزال وواصل على دربهم.

ثانيا: موضوعاته الشِّعريّة ومن أهم موضوعات أشعاره:

1. السّخريّة: كثيرا ما لجأ الشّاعر إلى السّخرية الممتزجة بروحه الفكاهية، وبرز ذلك حتّى في أحرج المواقف أو في أشدّها جديّة، ولو في غرض كغرض الغزل أو غيره، في مثل قوله(مجزوء الرمل)(5):

وهْي أدرَى فلماذا دافعتني بمُحالِ؟

أتُرَاني أقتضيها عِنْدُ شيْئًا مِن نوالِ

وقد تتجلّى هذه السّخرية أكثر عندما ترتقي إلى مستوى المرارة في النّظر إلى أمور وقضايا الحياة، والوصول إلى الأمور اليقينيّة التي لا خلاف فيها كما هو في مثل هذا الموقف (الكامل)(6):

قالتْ: أحبّكَ قلتُ: كاذبةٌ غُرّي بذا مَن ليس ينتقِدُ

هذا كلامٌ لستُ أقبَلُه الشّيخُ ليس يحبُّه أحَد

سِيّانَ قولُكِ ذا وقولُكِ إنّ الرّيحَ نعْقِدها فتنعقِد

أو أن تقولي: النّارُ باردةٌ أو أنْ تقولي: الماءُ يتّقِد

وحين تبلغ سخريّته هذا المستوى تلتقي بفلسفته الشكيّة الجانحة إلى التشاؤم وسوء الظن، وهذا هو حصاد تجربة طويلة جعلته

يقول(الوافر)[7]

من الآفات ظاهرُ صحيحُ إذا أُخبِرْتَ عن رجلٍ بريء
فسلْهمْ عنه هل هو آدميّ؟ فإنْ قالوا نعَم، فالقولُ رِيْح
وعند الله أجمعُنا جريح ولكنْ بعضُنا أهلُ استتار
ومِن إنعامِ خالقنا علينا بأنّ ذنوبَنا ليستْ تفوح
فُرادَى بالفَلا ما نستريح فلو فاحتْ لأصبحْنا هُروبا
وضاقَ بكلّ مُنتحل صلاحا لنَتْنِ ذنوبِه البلدُ الفسيح

وهو يستحضر المرأة، فالمرأة عنده سرْج للتداول، أو خان يتعاقب عليه النازلون أو ثمرة يأكلها أول مارّ بها(الكامل)[8]:

إنّ النّساءَ كالسّروجِ حقيقةً فالسّرْج سَرجُكَ ريثما لا تنْزِلُ
فإذا نزلْتَ فإنّ غيرَك نازِلُ ذاك المكان وفاعِلٌ ما تفْعَلُ
أو منزل المجتاز أصبح غاديا عنه، وينزل بعده مَن ينزل
أو كالثمار مباحةً أغصانُها تدنُو لأوّل مَن يمُرُّ فتؤكَل

2. الوصف:

وصف الغزال رحلته سفيرا إلى بلاد النّورموند، مع جماعة لم تذكر منهم المصادر إلا واحدا هو "يحيى بن حبيب"، وهيأت له رحلته تجارب جديدة في الحياة، واستخرجت كثيرا من الشّعر، ففي البحر قابلته العواصف، فوصفها الغزال ووصف تعلقهم بين الحياة والموت، وقدّم لذلك بمطلع غزلي، ثم قال(مجزوء الرمل)[9]:

قال لي يحْيى وصِرْنا بين موجٍ كالجبالِ
وتولّتْنا رياحٌ من دَبورٍ وشَمال
شقّتِ القِلعيْن وانبتّتْ عُرى تلك الجبال
وتمطّى ملَكُ المو ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأي الـعيْن حالاً بعدَ حال
لم يكنْ للقوم فينا يا رفيقي رأسُ مال

في هذا المشهد البحري المرعب و في أشد حالات الكرب، نجد يحي الغزال لا تزال يستحضر من ألوان الفكاهة العذبة، في قوله: «لم يكن للقوم فينا يا صديقي رأس مال»[10].

وقد وصف الشّيب عندما التقى مع الملكة النورمانديّة لمّا استحسنت خضابه لشَعره(الكامل)[11]:

بكَرَتْ تحسِّن لي سوادَ خِضابي فكأنّ ذاك أعادني لشبابِي
ما الشّيبُ عندي والخضابُ لواصف إلا كشمسٍ جلّلت بضبابي
تخفَى قليلا ثم يقشعها الصّبا فيصيرُ ما سُترتْ به لذهاب
لا تنكُري وضح المشيب فإنّما هو زهرةُ الأفهام والألباب
فلديّ ما تهوين من شأن الصِّبا وطلاوة الأخلاق والآداب

3. المدح:

قال مادحا الأمير عبد الرحمان الأوسط بالعدالة والهيبة، ومستعطفا إيّاه، مبتدئا بالتّشبيب

(السريع) :[12]

بعضَ نصابيكَ على زينبِ لا خيرَ في الصّبْوة للأشْيَبِ
أبعد خمسين تقضّيتَها وافيةً تصبُو إلى الرّبرب
كلّ رداح الرّدف خُمصانةٍ كالمُهْرة الضّامر لم تُركب

وقال:

مَن مُبلِغٍ عنّي إمام الهدَى الوارثَ المجد أبًا عن أبِ
أنّي إذا أطنبَ مُدّاحُه قصدتُ في القول فلم أُطنِب
لا فكَّ عنّي اللهُ إن لم تكنْ أذكرْتَنا من عُمرَ الطيّب
وأصبح المشرقُ من شوقه إليك قد حنّ إلى المغرب

إلى أن قال:

إن تُردِ المال فإنّي امرؤٌ لم أجمعِ المال ولم أكسبِ
إذا أخذْتَ الحقّ منّي فلا تلتمسِ الرّبحَ ولا ترغَب
قد أحسن اللهُ إلينا معًا أنْ كان رأسُ المالِ لم يذْهب

من خلال الأبيات السابقة تتبيّن لنا شخصيّة الغزال التي لا تذعن، وإنما تعتمد على القدرة في المدح واعتماد روح الفكاهة المميّزة.

ومن مدائحه أيضا أنّه دخل على الأمير "عبد الرحمن بن الحكم" في قصره، فحياه الأمير بقوله:

جاء الغزال بحُسْنه وجماله

فقال له أحد الوزراء أجز ما بدأ به الأمير، فقال الغزال(الكامل)[13]:

قال الأميرُ مُداعبا بمقالِـه جاء الغزالُ بحسنه وجمالهِ

أين الجمالُ مِن امرئٍ أرْبَى على تعدّد السّبعينَ مِن أحواله..؟

وهل الجمالُ، له الجمال، مِن امرئٍ ألقاهُ ريبُ الدّهر في أغلاله

وأعادَه من بعد جِدّته بِلًى وأحال رونقَ حالهِ عن حاله

وهي قصيدة طويلة، لم تبق منها إلا هذه الأبيات التي تدل على نسق جميل. وهي قطعة شِعرية حسنة، والخبر يدل على استمتاع الغزال بجماله وحسن هيئة إلى شيخوخته.

ونُقل عن مخطوط للمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (Lévi Provençal)أنّ الشّاعر مدح الحكَم الرّبضي، قائلا (الطويل)[14]:

كأنّ الملوكَ الغُلْب عندكَ . خُضَّعا. واضعُ طيْر تتّقي الصّقر لُبّدُ

تقلّبُ فيهم مُقلةً (حكَميّةً) فتخفِضُ أقواما وقوما تسوّدُ

4. الهجاء:

من أخباره في أيّام الأمير عبد الرّحمن صلته بقاضيين أخوين من بلده "جيان"، وهما "يُخامر الشعباني" وأخوه "مُعاذ"، أمّا الأوّل فقد ولّي القضاء سنة 220هـ، فعامل الناس بخلُق

صعب ومذهب وعر فانبرَى له الغزال يهجوه ويصفه بالبله والجهل، ومن شِعره يشير إليه(الطويل):[15]

فسبحانَ مَن أعطاكَ بطشًا وقوّةً

وسُبحان مَن ولّى القضاءَ يُخامِرا

ثم ولي "مُعاذ" القضاء سنة 232 هـ وكان طيّبا ولّى أحباس قرطبة رجلا ظنّ فيه خيرا فخاب ظنّه، فقال الغزال(الطويل)[16]:

يقولُ لِي القاضي مُعاذٌ مُشاوِرا

وولّى امرءًا فيما يَرى من ذوي العدْلِ:

فديتُكَ ماذا تحسِب المرءَ صانعا

فقلتُ: وماذا يفعلُ الدُّبُّ في النّحْل؟

يَدُقّ خلاياها ويأكلُ شهدَها

ويتركُ للذِّبان ما كان مِن فضْل

كان الغزال حينئذ قد تجاوز الخامسة والسّبعين وتهكّمه بالقاضي وصاحب الأحباس ممزوج بالحكمة.

ومن هجائه، قوله في رجل اسمه خالد(الطويل)[17]:

قصدتُ بمدحي جاهدا نحو خالد

أؤمّلُ من جدواهُ فوق مُنائِي

فلم يُعطني من ماله غيْر درهم تكلّفَه بعد انقطاع رجائي

كما اقتلعَ الحُجّامُ ضِرْسا صحيحة إذا استُخرجت من شدَّة ببكاء

5. الزّهديّات:

يبدو أنّ الزمن ترك بصماته في نفس الغزال ومزجت نظرته إلى الحياة بمرارة شديدة وبعد أن كانت سخريّته تريحه، ثقلت عليه وطأة السنين، وكان من جرّاء ذلك أن امتزج شِعره بالموعظة، واتّجه اتّجاها زهديا فأخذ ينعَى على أهل اليسار احتفالهم ببناء قبورهم كأنّهم غافلون عمّا خرب من مدائن وقصور ويذكر الموت، وأنّه لم يفرّق بين مَن يلبس الصّوف ومَن يلبس

الحرير(الوافر):[18]

إذا أكل الثّرَى هذا وهذا فما فضل الكبير على الحقير؟

وأخذ يرثي نفسه ويستشعر الغربة بين أجيال لا تعرفه، بل ربما حسدته على طول عمره(البسيط)[19]:

أصبحتُ واللهِ محسودًا على أمدٍ

من الحياة قصيرٍ غيرِ مُمتدِّ

حتّى بقيتُ بحمد الله في خلَفٍ

كأنّني بينهمْ مِن خَشية وحْدي

وما أفارقُ يوما مَن أفارقُه إلا حسبتُ فراقي آخِر العهْد

أنظرْ إليّ إذا أُدرِجتُ في كَفني وانظُرْ إليّ إذا أُدرِجْتُ في اللّحد

واقعدْ قليلا وعاينْ مَن يقيم معي ممّن يُشيّعُ نعشي مِن ذَوي وُدّ هيهاتَ كلّهُم في شأنِه لعِبُ

يَرمي التُّرابَ ويحثُوه على خَدّي

وحتى في هذا الفنّ لا نحس أنّ الغزال كان يصطنع هذه الحكمة، ليقال أنه مجرّب، وإنما هي تفيض عن نفسه طبيعية معقولة، وإن كانت مريرة.

وفي بعض أشعار الزّهد هذه تصحّ له ابتكارات المستغرق في ذات موضوعه، كقوله(الطويل)[20]:

ولو كانت الأسماءُ يدخلُها البِلى لقد بَلِيَ اسمي لامتدادِ زمانِي

وما ليَ لا أبلى لتسعينَ حجّةً وسبعٍ أتتْ من بعدها سنتان

إذا عنَّ لي شخصٌ تخيّلَ دونَه شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخان

فيا راغبا في العيش إنْ كنت عاقلا فلا وعْظ إلاّ دون لحْظِ عِيانِ

تلك هي النهاية التي انتهى إليها الغزال في الشّعر، أما بدايته فكانت بصرا نافذا بالنّقد في شبابه أيام كان يدرس في مسجد قرطبة، وعبثا لاذعا بمن حوله من الأشخاص الذين لا يعجبونه، ومحاكاة لأبي نواس في خمريّاته ومجونيّاته، وهجّاء مقذعا، وغزلا لا يتميّز بالرقة، وربما كان

أضعف فنونه، ثم حكمة قائمة على السّخرية تنتهي إلى فلسفة شكليّة مريرة متشائمة، ورثاء لشيخوخته وضعفه.

ويقولون إنّه كان مقبلا على اللهو ثم أقلع عن شرب الخمر بعد عودته من المشرق وكانت يومئذ قد علت به السنّ وشارف الستين، واتجه إلى الزهد عملا وقولا. وقد أورد له صاحب كتاب (العقد الفريد) نصّا شعريّا يثبت أنّه كان بعيدا من اللهو واللذات والمجون والعبث، مطلعها(الطويل): [21]

لعمري ما ملكْتُ مِقوديَ الصِّبا فأمطوَ للّذاتِ في السّهل والوعْرِ

ولا أنا ممّن يؤْثرُ اللهوَ قلبُه فأُمسي في سكر وأصبح في سُكْر

ويواصل متحدّثا عن قناعته البشرية ماء وبخبز وبقل دون لحم حتّى لو عمّر تسعين حجّة:

كفانيَ مِن كلّ الذي أُعجبوا به قُليلةُ ماءٍ تُستقَى لي من النّهرِ

ففيها شَرابِي إن عطشتُ وكلّ ما يريدُ عِيالي للعجين وللقِدْر

بخبزٍ وبقْل ليس لحْما و إنّني عليه كثيرُ الحمْدِ لله و الشّكر وبالله لو عُمِّرتُ تسعين حجّةً

إلى مثلها ما اشتقتُ فيها إلى خمْر

ولا طربتْ نفسي إلى مِزهرٍ ولا تحنّنَ قلبي نحو عُود ولا زَمْر

وقد حدّثوني أنّ فيها مرارةً وما حاجةُ الإنسان في الشُّرْب للمُرّ

فان كانت هذه القصيدة للغزال حقا، فأنها قد تغيّر النظرة إلى سيرته، وإلا فأنها مما قاله بعد أن نسك، على أننا نراه في رحلته يتعذر للملكة بان الخمر حرام في دينه، ولا يعتذر بكبر السن أو بما يقارب ذلك، ولا بد من أن نذكر دائما انه كان ميالا للمداعبة والفكاهة في كل أدوار حياته.

6. النّقد الاجتماعي:

صوّر الشّاعر بعض المشكلات الاجتماعيّة، كمشكلة اختيار الزّوج، كإجبار الفتاة على الاختيار بين شيخ غنيّ أو شابّ فقير، إذ يقول(الوافر) [22]

وخيّرها أبوها بين شيْخٍ كثير المالِ أو حدَثٍ فقيرِ
فقالتْ خُطّتا خسْفٍ وما إنّ أرى من حُظْوةٍ للمستخير ولكنْ إن عزمتَ فكلُّ شيءٍ

أحبُّ إليّ مِن وجْه الكبير لأنّ المرء بعد الفقْر يُثري وهذا لا يعودُ إلى صغيرِ

ومن نقده الاجتماعي أنّه يرى العلاقة الاجتماعية شيئا شبيها بالعلاقة التّصادميّة بين القط والفأر والثعلب والدّجاج، وكأنّ هذه الخصال سرت في كثير من أخلاقيات النّاس وهو يقول في ذلك(الخفيف):[23]

لا، ومَن أعملَ المَطايا إليه كلُّ مَن يَرتجِي إليه نَصيبَا
ما أرى ههُنا مِن النّاس إلاّ ثعلبا يطلبُ الدّجاج وذِيبا

أو شبيها بالقِطّ ألْقَى بعيْنيْـه إلى فأْرةٍ يريدُ الوُثوبا

7. الغزل:

لا شكّ أنّ أغلب الشّعراء عبّروا عن أحاسيسهم العاطفيّة، وبما أنّ الهوى لا سلطان عليه، إن لم نقل نسيم العاشقين، إلا أنّ يحي الغزال جسّم في استعارة الهوى لواعجه وصبابة العشّاق، وطيف المتيّمين كما في قوله(الطويل)[24]:

ولا والهوى ما الإلفُ زارَ على النّوَى يجوبُ إليّ الليلَ في البلد القفْرِ
ولكنّه طيْفٌ أقام مثالَـهُ لعيْنيّ في نَومي خواطرُ مِن فِكْري

وقال في جارية اشتراها(الكامل)[25]:

لم أنس إذ برزتْ إليّ لعوبُ طربا وحيث قميصها مقلوبُ
وكأنّها في الدّار حين تعرّضتْ ظبيٌ تدلّهَ بالفلا مرعـوب
تفترُّ عن درّ تناسقَ نظمه فيه لثاة عذبة وغُـروبُ

وقال في وصف شوقه إلى من يحبّ(البسيط)[26]:

إقْرِ السّلام على إلفٍ كلفتُ به قد رمتُ صبرا وطولُ الشّوق لم يرِمِ
ظبيٌ تباعدَ عن قرْبِي وعن نظري فالنّفسُ والهة مِن شـدّة الألم
كنّا كروحيْن في جسم غِذاؤُهما ماء المحبّة من هامٍ ومُنسجـم
إلفين هذا بهذا مغرَم كلِفُ وواحدٌ في الهوَى منّا بمُتّهـم

يبدو من خلال نماذج المقطعات السّابقة أنّ شعره امتاز بالعفّة في الوصف الغزلي، وبالتّالي يكون أقرب إلى مدرسة العذريين في العصر الأموي. ويكون مردّ ذلك في اعتقادي المكانة التي تبوّأها في داخل الدّولة الأمويّة بالأندلس وخارجها.

8. مع الملكة النورموندية:

قال المستشرق الرّوسي إغناطيوس كراتشكوفسكي I Krachkovski في الغَزال: «هو يحي بن حكم البكري الملقّب بالغزال لجماله. لعب دور الدّبلوماسيّ مرّتين، وهو شاعر فنّان، وعلى معرفة بعدد من اللّغات»[27].

وفي الملكة النرَّماندية(تيودورة Theodora)، يقول الغزال(السريع) :[28]

كُلّفتَ يا قلبي هوىً مُتعِباً غالبْتَ منه الضّيغمَ الأغْلَبَا
إنّي تعلّقْتُ مَجُوسِيَّةً تأبَى لشمسِ الحُسْنِ أن تغرُبا
أقْصى بلاد الله في حيث لا يُلفي إليه ذاهبٌ مذهبا
يا تؤدُ يا رُودَ الشّباب التي تُطلِع من أزرارها الكوكبا
يا بِأبِي الشّخصُ الذي لا أرى أحْلى على قلبي ولا أعذبا
إن قلتُ يوما إنّ عيني رأتْ مُشبِهُهُ لم أعْدُ أن أعذَبا
قالتْ: أرى فؤْديْه قد نوّرا دُعابة توجبُ أن أكذِبا
قلتُ لها: ما بالُهُ؟ إنّه قد يُنتَجُ المُهْرُ كذا أشهَبا
فاستضْحَكتْ عُجْبا بقولي لها وإنّما قلتُ لكيْ تعْجبا

وقد نجحت مهمّة الغَزال، وسَجّل السّبق بريّادة السّفارات الدبلوماسّية الأندلسيّة.

ويروِي ابن سعيد أنّ الملكة (تيود) جاءته ذات مرّة بخمر، وطلبت إليه أن يشربها، فأبى لأنّ ذلك لا يجوز في دينه، ثم أدركته ندامة فقال من قصيدة يعبّر عن ذلك(الوافر)[29]:

فقلتُ حماقةً مِنّي ونَوْكًا فديتُكِ لسْتُ مِن أهْل الشَّمولِ
فأيّةُ غِرّةٍ سبحانَ ربّي لَوَ انّي كنتُ مِن أهل العقولِ؟

ثالثا: خصائص شِعره:نظَم الغَزالُ، في أغراض شَتّ من الشّعر: الغَزل والهِجَاء والتعريض، والمَدْح، والوَصْف، والحكمة، والتأمّل في شؤون الحياة، وبَرزتْ مقدرته على مُعالجة النقد الاجتماعيّ في موضوعات متعدّدة، ومن أغراض الشاعر البارزة في شعره الباقي الهجاء. يعبّر شِعر الغزال عن الذّات والمجتمع، ويصدر عن البديهة، والمباشرة استجابة لكل فئات النّاس في الحياة. وهو يتّسم بالسّهولة، واليسر في تناول الفكرة، والبعد عن التكلّف، والإقلال من أيّ تزيين أو تحسين، إلا ما جاء عارضا مع

استجلاب الفكرة ونظمها[30]وهو أقرب إلى الطّبع وأبعد عن التكلّف، وأعمق تجربة وأنفذ نظرا، وأغور حكمة، ومن قلّة احتفاله بصقل المبنَى الشِّعري تجد على شِعره آثار الجفاء وقلّة التحليّة اللفظية، وطلب المعْنى في قالب مستوٍ وإنْ لم يكن شديد الرّصانة، وهو ميّال إلى الجانب التحليلي أكثر من ميله إلى التركيز، ولذلك اعتقد أنّ إتقانه للقصص الشِّعري كان من سماته الشِّعرية البارزة[31].وممّا يميّزه بين شعراء الأندلس ميزتان كبيرتان الأولى: قيام شِعره على النّظرة السّاخرة، ووضوح نظراته الفلسفيّة القائمة على تجربته، وهما خاصيتان عزيزتان في الشّعر الأندلسي[32] اعتماده المشهد الحكائي في بناء نصوصه الشِّعريّة بمختلف أغراضها، معتمدا الحوار الذي يتّصف بالبساطة وعدم التكلّف، واعتماد اللغة المحكيّة، ذات السمة الشّعبيّة[33]. اتّكأ عل مجموعة من البحور والأوزان الشّعريّة الخفيفة المتنوّعة من الطويل والوافر والسريع إلى الرّجز وذلك حسب الحالة النّفسيّة وما يتطلّبه الموقف الشّعري. كما استعان بالضّرورات الشّعريّة ويعود ذلك للتّخفيف في الأوزان.

خاتمة: من خلال ما تقدّم يمكن أن نستنتج أنّ شعر الدبلوماسي الغَزال اتّسم بخصائص أهمّها:

. الموضوعات الواقعيّة ومن صميم البيئة التي عاشها، الذّاتيّة منها أو الاجتماعيّة ممّا ينطبق عليه فعلا مقولة أنّ الشّاعر ابن بيئته.

. النّصوص المقطّعيّة لا القصائد الطّويلة، لأنّها أقرب إلى التّلقائيّة والصور الخاطفة.

. اللغة العفويّة القريبة من الجمهور، لكن دون ابتذال مخلّ، .

. امتزاج هجائه بالسخريّة اللاذعة أحيانا، .

. اعتماده فنّ الحوار في كثير من نصوصه لأغراض مختلفة وبأسلوب سلس لا تكلّف فيه.

. قدرته على حسن المديح معنى ووصفا.

. تجسيده الدّعابة تعبيرا لحالته النّفسيّة الصّادقة، لأنّه عرف عن الشّاعر الميل إلى الدّعابة.

كما صنّف شعره في ثلاث فترات من حياته:

فترة الطيش والشّباب: وأكثر موضوعاتها تتناول مرحلة شبابه وما يتّصف بها من مواقف هامّة ومجون وفكاهة.

فترة الرّجولة: وتناول فيها موضوعات الأخلاق والنّقد الاجتماعي.

فترة الكبر: وحمل فيها قضايا واقعيّة تصوّر هذه الفترة كالشكوى من الزّمن والزّهد وأخذ العبر وذكر الموت.

الهوامش:

(1) الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1952، ص6و7.

(2) المقّري: نفح الطيب، ج2، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان،1968، ص255.

(3) ينظر: محمد رضوان الداية: الأدب الأندلسي والمغربي، جامعة دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، 1981، ص72.

(4)ديوان يحي بن حكم الغزال، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، ص1993،

(5) الديوان، ص72.

(6)محمد رضوان الداية: الأدب الأندلسي والمغربي، ص79

(7)الديوان، ص47.

ا (8)لديوان، ص65و66.

(9) أحمد بن محمد المقري: المصدر السابق، ج2، تح: ، دار صادر، بيروت، لبنان، ص259و260.

(10) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1969، ص162.

(11) الديوان، ص38و39.

(12)الديوان، ص39و40و41.

(13) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، تح: ج.س.كولان (14).ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص93.

الديوان، ص45.

(15) الديوان، ص49.

(16) الديوان، ص67و68.

(17) الديوان، ص27.

(18) الديوان، ص61.

(19) الديوان، ص46و47.

(20) الديوان، ص79

(21)الديوان، ص57و58.

(22) الديوان، ص62.

(23) الديوان، ص32.

(24)ينظر: محسن إسماعيل محمد، الصورة الشّعريّة عند يحي الغزال الأندلسي، مجلة التراث العربي، العدد75، أبريل 1999، السنة19، ص40.

(25) الديوان، ص34.

(26) الديوان، ص74.

(27) الديوان، ص17.

(28) الديوان، ص31.

(29) ينظر: الديوان، ص69.

(30) ينظر: الديوان، ص19و20.

(31) ينظر: الديوان، ص24.

(32) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1969، ص166.

(33)ينظر: أسامة اختيار، بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد الثالث والرابع، 2011، ص21.